

## جولة أفق في العلمانية وشأن الحضارة

### عزیز العظمة

وعنيفةً في أحيانٍ أخرى. وليس ذلك بالأمر الباعث على الاستغراب، إذ إن مقاومة التحول والتجديد شأنٌ مشهودٌ وطبيعي في كل التواريخ. أما لدينا، نحن معشر العرب، فإن ممانعة التقدم قد باتت في العقدين الأخيرين مُتصدرةً المشهد العام، وهي تمعن في التجذّر بوتائر متسارعة، ولاسيما بعد كارثة أيلول ٢٠٠١. وإننا على ذلك - وأعني بضمير المتكلم هنا الحداثيين والعلمانيين منا - قد ابتدأنا بالإنفاق من رأس المال الثقافي والاجتماعي الحداثي الذي رُوِّك على امتداد قرن ونصف قرن، واتخذ الكثير منّا مواقع دفاعية أو انزوائية، بل وأحياناً محابيةً أو منافقةً، بدلاً من بذل الجهد استمراراً في مسيرة التقدم وصيرورة النهوض.

قبل أن أنصرف إلى تناول شأن النكوص هذا على صعيديّ المحلي والعالمي عليّ أن أحتكم على بعض الاستذكار، وأن ألامس بعضاً من الواقع على صورة يتبين منها أنني لست متممياً إلى ذلك الفصل من العرب من المثقفين وغير المثقفين، ذوي النزعة العدمية، وهم كثر إن لم يكونوا الأكثرية، ممن يرى في المشكلات التي نواجه، وفي عدم اكتمال صيرورات التقدم لدينا، دليلاً على نقص خلقٍ فينا، كالقول بأن «الإسلام دينٌ ودينا»، أو إننا «مفطورون على النزاع الطائفي». ويقوم هذا الموقف على اعتبار النقص والاستمرار في الفوات التاريخي دليلين على عجز نابع من جوهرٍ قارٍ في الحضارة العربية وفي الواقع العربي - وهو جوهر يحلو للكثيرين أن يُلقوا عليه عبارة «الحضارة الإسلامية». أما فلست من دعاة العدمية التاريخية، ولذا فإنني أرى أن لهذا النكوص، الذي سأحدث عنه، بدايةً، وستكون له نهايةً.

لقد اجتبتنا الكثير من سمات التقدم على امتداد ما يزيد على قرن، باتساعاتٍ وعماقٍ متفاوتةٍ بين دولة عربية ودولة عربية أخرى، بين الريف والبادية والمدينة والأجزاء المريفّة في المدينة، بين الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة، إلى سائر ذلك من عناصر التفاوت الاجتماعي والثقافي الطبيعية في كلّ زمان ومكان. بل أضيف على ذلك أن القول بأن مجتمعاتنا العربية

الملاحظة الأولى: لن أدخل في نقاش لا طائل منه حول رفع العين أو كسرهما في كلمة «العلمانية»، وحول فذلكة علاقة الرفع والكسر باشتقاقين مزعومين وغير مستقيمين (أهي من «العالم» أم من «العلم»؟)، وإن كان يمكن تقديم مرافعة معجمية تاريخية في هذا الأمر. كلُّ ما أودّ قوله في هذا المجال هو أن الكلمة متحققة في اللسان العربي، وفي كتابات كنسية عربية مبكرة، بكسر العين، مقابلاً لعبارة Laios اليونانية. المهم في الأمر هو أن أكثرنا قد قوّم لسانه في العقدين الأخيرين بالعجمة التي دخلت علينا من أعداء العلمانية في مصر، الذين آثروا الرفع على الكسر، ولن أجارهم في ذلك.

الملاحظة الثانية: لا يمكن تقديم تعريف واحد، جامع ومانع، للكلمة والمفهوم؛ ذلك أننا بصدد جملة عمليات تاريخية موضوعية لا تقبل الاختزال ولا التبسيط. وإنني ممن يفضل إنكاء ملكة التمييز على إثارة ما يُستسهل من الصيغ والنماذج. بذلك أباشر بحثي وأقول: لو كنت أكتب منذ عقدين من الزمن لأفضت في الحديث عن التمدن والترقي التاريخي للمجتمعات العربية، ولأشرت إلى مكامن التخلف والفوات التاريخيين عن مسار الاجتماع البشري، ولخاطبتكم بنبرة متفائلة إلى حدٍ كبير. ذلك أننا كنا - أنا والكثير من المخضرمين مثلي - على قناعة بأنه مع مرور الزمن لا بدّ لمواضع التخلف والفوات، المتبقية لدينا كما لدى غيرنا، وفي المجتمعات المتقدمة نفسها، أن تخضع لمنطق الترقّي وتتقوّم به، ولو على مضض. فالحال أن التقدم ليس فردوساً موعوداً يرتجيه الناس، بل وعدٌ بالتحول عن مرحلة ركود تاريخي إلى مرحلةٍ من الفعل في التاريخ، مجارية لتطورات العصر ومتطلباته وشروطه وإيجابياته، بل وسلبياته أيضاً: من نموّ عقلي وذهني وإداري وسياسي واجتماعي، ومن ازدياد في مساحات الحريات العامة والشخصية والمعرفية وفي إمكانات الإبداع العلمي والثقافي.

بيد أنه من الجلي أن تجارب التقدم على الصعيد العالمي - ومنها ما شاهدناه في عالمنا العربي - لم تكن سلسلةً أبداً؛ بل جابه التقدمُ أزمنةً ومواقع نكوصيةً كثيرة، وممانعةً سلميةً حيناً

## جولة أفق في العلمانية وشأن الحضارة

موحدةً الوتائر في التحول أو في الفوات، وبأنها متجانسةً (خصوصاً تحت عنوان «الأصالة والعفة الحضارية»)، ليس قولاً مجانِباً لطبائع الاجتماع البشري فحسب، وإنما هو أيضاً محاولة لفسر مجتمعاتنا على الانضواء تحت ظلّ فئات وتيارات تتوسل من ذلك القول سبيلاً للسيطرة السياسية والإيديولوجية والاجتماعية.

وللتحديد، تجب الإشارة إلى بعض سمات التقدم التي جنيناها في تاريخنا الحديث السريع التحول: فقد جنينا فهماً مؤسساتياً ومدنياً للدولة، على تفاوت وتائر التنفيذ وأشكاله؛ وأدركنا أنّ الدولة كيانٌ سياسي وإداري نابغ من المجتمع وتوازنته، على اعتلالها؛ وأنها نصابٌ مدني بشري، لا ظلٌّ لله على الأرض؛ وأنّ السياسة نشاطٌ بشري، لا «عبادات اجتماعية» حسب عبارة الشيخ محمد الغزالي. وقد استوعب معظمنا أنّ السياسة توافقُ وصراعُ على المصالح البشرية؛ وأنّ سبلها هي التفاوض والنزاع والفسر والتمثيل السياسي بكافة أشكاله أو الاستئثار بهذا التمثيل، لا الاحتكامُ إلى النصوص المتقدمة؛ وأنّ رئاسة الدولة منصبٌ سياسي وتنفيذي، وممارسةً لسلطة اجتماعية وسياسية، لا نيابةً عن قوى خفية.

ثم إننا أدركنا - ولو بنسب متفاوتة تبعاً لتفاوت وتائر ودرجات الترقّي المجتمعي والذهني والعقلي - أنّ الحرية الشخصية مكسبٌ بالغ الأهمية. وأدرك الكثيرون أنّ المعيار الأكيد لهذه الحرية وسويتها إنما هو حرية السلوك والتصرف لدى المرأة. وتؤدي بنا الإشارة إلى المرأة إلى قضايا تتعلق بالقانون: فقد أدرك المشرّعون العرب ومعظم السلطات السياسية العربية أنّ النظم القانونية التي احتكنا إليها على امتداد قرون طويلة قد تقادمت؛ ولذا أسقطنا من القوانين التي نحتكم إليها، منذ منتصف القرن التاسع عشر، الرقّ والذمة ودونية الأهلية القانونية للمرأة. بل إنّ السعودية، التي تُعتبر القرآن دستوراً لها أو بديلاً لها عن دستور، كان لا بدّ أن تلجئ إلى تشريعات إدارية حديثة لتسيير أمور الناس ومعايشهم. ثم إنّ الدول العربية التي فنّنت بعض عناصر الفقه الإسلامي تحت عنوان

«تطبيق الشريعة» لم تستبق من هذه التشريعات الفقهية إلاّ بعض العناصر المشهدة والدرامية كالحجاب والعقوبات، والتجأت إلى مفهوم حديث للقانون (والتقنين شأنٌ مقترنٌ بالعصور الحديثة ولا نظير له في الفقه الإسلامي القديم) وإلى معاملات حديثة عنونتها بـ «الشرعية» - يسري الحكمُ نفسه على ما يدعى دور المال الإسلامية. كما اعتمدت معظم الدول العربية، على اختلاف نظمها السياسية، قوانين مدنية (في سورية أولاً، ثم في مصر والعراق والكويت وغيرها) على أساس مزيج من القوانين المعتمدة في فرنسا وبلجيكا وسويسرا، مسقطاً بذلك ضمناً بندَ المعاملات في الفقه الإسلامي استناداً إلى إدراك تقادمه. ولئن تضمنت هذه القوانين المدنية قليلاً من الأحكام الفقهية القديمة، إلا أنّ هذه أتت باعتبارها في حكم العادات الاجتماعية لا التشريع الإلهي. ولئن لم تر معظم السلطات العربية إلى الآن ضرورة إعادة الصياغة الشاملة لقوانين الأحوال الشخصية بصورة تضارع التشريع المدني في المجالات الأخرى، إلا أنّ كثيراً منها عمل على تهذيب تشريعاته بدرجات متفاوتة، وآل بالمرابعة والمرافعة إلى المحاكم المدنية. وقد أنّ الأوان لكي تُساقِ السلطات التشريعية في غير بلد عربيّ التشريع مع واقع المجتمع، وأن تدرك أنّ تعدد الزوجات على سبيل المثال أصبح عادةً اجتماعيةً مذمومةً ومعيبةً على الأغلب - وقد كانت دوماً كذلك لدى فئات اجتماعية مختلفة. وعليها أن تعي أنّ إطلاق اليد في الطلاق أمرٌ لا ينمّ إلاّ عن التخلف، وعن فهم مَرَضِي للرجولة، وعن نرجسيةٍ مقترنةٍ بإحساس بالنقص وبعدم الاقتدار (عدا الاقتدار على امرأة مستضعفة وإن لم تكن ضعيفة)، وأنّ الاستقلالية الاقتصادية المتنامية للمرأة تجعل من تشريعات الموارث الإسلامية أموراً تقادمت تقادماً مفهوم «القوامة».

يمكن إيجازُ حصيلة ما ذُكرت وما لم أذكر من أمور جنيناها بكلمة بسيطة هي: العلمنة. فما العلمنة إن لم تكن مدنية القانون، ومدنية السلطة، ومدنية مرجعيتها المتراكبة مع أمور تستبطنها هذه المدنية وأهمها: مرجعية المصلحة والعقل في أمور المجتمع

مشكلتنا في العلمانية ليست كامنة في عدم قابليتنا، بل في رفض الكثير منا الإقرار بالوعي، وفي رغبة بعضنا في إضافة إرادة التراجع إلى اعتماد نفي الواقع سبيلاً لنفي الهوية التاريخية.

وهوية كثيراً ما تصاغان بلغة الدين (الإسلامي أساساً) وتُعتبران طلسمين حاميين وضمانةً سحريةً تقينا نوابئ هذا العصر. والحال أن الإحالة على الأصالة والهوية بدلاً من التاريخ، وإطلاق تعبير «الصحة» على النكوص المشهود والمتنامي وعلى الرغبة في الاستزادة منه، إنما يأخذان بيدنا إلى التفنن في الإغراب والمبالغة فيه، وإلى الاستسلام إلى «وحشي الكلام» في شأن طبائع مزعومة لمجتمعاتنا.

ذلك أنه قد يُعتقد أن التخندق في ما يُرغم أنه «تاريخ» أمرٌ يجلب لنا شيئاً من العصمة، أو المناعة، في مواجهة ما نعانيه أفراداً وجماعات: من تصدُّع في الهيئة الاجتماعية، ومن استئثار بالثروة الوطنية، ومن هجمة خارجية بالغة الوحشية عنوانها إسرائيل والولايات المتحدة. ولكن واقع الأمر على خلاف ذلك. وعندي أن التخندق هذا، على الأقل لدى النخبة المثقفة، ينبع من الإذعان والاستسلام لرؤية في السياسة والاجتماع بالغة التعيين، هي رؤية الإسلام السياسي، الذي ينحو إلى النجاح في المزوجة بين مقالة الديمقراطية وبين الشعبوية. وما الشعبوية إلا نظرة إلى المجتمع ترى فيه جوهرًا قارًا ومستمرًا ما وراء التاريخ وما قبله، هو الإسلام، ضاربةً عرض الحائط بالواقع: واقع التمايز الداخلي، وواقع كون الإسلام بحد ذاته أمرًا متحولاً، وأن ما يعزى إليه الآن إنما هو أمر مستجد: بل إنه إسلام مستجد علينا، وهابي المنبت، أو خميني المشرب الإيديولوجي. ليس الإسلام برنامجاً سياسياً واجتماعياً، ولا هو مقومٌ للمجتمع، إلا في نظر جماعات سياسية تبتغي الهيمنة، وتعمل منذ عقود - بتأييد لوجستي وإيديولوجي حاتمي - على تسوية صفحة المجتمع لصالحها وعلى صورتها. ولا سبيل فعلياً لهذه الجماعات في التوصل إلى ذلك إلا العنف اللفظي والمعنوي والجسدي، والتوكيد والزرع البياني، والصوت المرفوع، واحتلال الفضاءات العامة (ومنها الفضاءات الصوتية وإقلاق راحة الجيرة القريبة والبعيدة في سكون الفجر)، وذلك بدعوى التفرد في جوهر قارٍ يعطي اسم الإسلام على مسمياته، ويحاول إخضاع المسميات للاسم، من دون استقرار التاريخ

والدولة والسلوك، واعتماد العلم بالتاريخ والجغرافيا بدلاً من الاهتمام بجبل قاف وبمعارك الجان والملائكة وتحول النار برداً وسلاماً والمشى على الماء واتخاذ المدارس والجامعات بدلاً من حلقات المساجد والأديرة... إلى آخر ذلك مما يمكن أن يُذكر؟

لا شك في أن لدينا، كما لدى غيرنا، الكثير من مواضع النقص في هذه المجالات جميعاً: من تأليه للسلطة، إلى الالتجاء إلى الإفتاء، إلى التفكير الخرافي في هذا الأمر أو ذاك. ولكن ذلك ليس بالغريب عنا ولا عن غيرنا: فالتفكير الخرافي منتشر في أكثر البلدان تقدماً وأكثرها علمانيةً، والنحو عن التفكير التاريخي باتجاه أعمال الأسطورة في التاريخ ليس غريباً عن أي مجتمع من المجتمعات. والفرق بين المجتمعات في هذا المضمار ليس فرقاً في درجة الفضيلة التاريخية، بل في مستوى الرقي والثبات والإجماع والانشداد نحو المستقبل. فالحال أن العلمانية ليست بالفهرست الذي يحتوي هذا العنصر أو ذاك مما يمكن أن يقال إنه اكتمل أو لم يكتمل، وليست بالضرورة برنامجاً يحتذى، وإنما هي حصيلة تطور، وهي صيرورة قائمة في الواقع المتعين لا يمكن أن تقاس بالدرجات، وإن كانت قابلة للمقارنة بما سبق أو بما فات أو بما زال في طور الضياع في الفوات.

مشكلتنا مع العلمانية، إذن، ليست كامنة في عدم قابليتنا، أو في أننا مازلنا قابعين في العصور الوسطى، وإنما تكمن في رفض الكثيرين منا الإقرار بالوعي، وفي رغبة البعض منا في إضافة إرادة التراجع والنكوص إلى اعتماد نفي الواقع سبيلاً لنيل الهوية التاريخية. وفي ذلك رغبة في الخروج من التاريخ - وستكون لي عودة إلى هذا الأمر.

إن كانت العلمانية بهذا المعنى تتضمن الاعتراف بمعرفة تطابق الواقع، فما الذي يجعلنا نشاهد أفراداً وجماعات عربية واسعة تتنافس لمنافاة حكمة ابن المقفع الزاجرة: «إياك وتتبع وحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة؟» وأستخدم كلمة «البلاغة» استخداماً مجازياً بالطبع هنا، للتدليل على ما يُعتبر أصالة

## جولة أفق في العلمانية وشأن الحضارة

العبوس، وكأنه إله العهد القديم الذي يستسيغ الدم ورائحة الشواء المحترق ويطلب شعبه بالاستزادة منهما. ويدخل هذا النموذج في علاقة متبادلة مع مقالة أخرى تذهب إلى أن العلمانية في مجتمعاتنا أمر متوهّم لكونها نابعة من بعض النخب التحديثية غير المتطابقة مع المجتمع. والحال أن مقالة التطابق الضروري بين المجتمع المفترض التجانس، والدولة، والنخب، لا مطابق فعلياً لها في علم الاجتماع السياسي ولا في علم التاريخ الاجتماعي للديموقراطية. والحق أن وسم العلمانية بالخبوية ليس مثلبة، بل توصيف سوسولوجي غير بعيد عن الصحة؛ وإن أردنا أن نمزج بين القيمي والسوسولوجي، فعلينا أن نعتها بالطليعية. وللدقة، فإن الشعبوية ليست نقيض الخبوية ولا هي البلسم الشافي منها، وليس نقيضها ونقيض الطليعية إلا الذيلية، وتحديدًا الذيلية إلى التيارات السياسية الإسلامية وخطابها في المجتمع والدولة والتاريخ، إضافة إلى تملق جمهور متخيل. لا يمكن إقامة تضاد (وعدم وجود التضاد لا يمنع وجود التناقض الديالكتيكي) بين ما يدعى بـ «الشارع العربي» (والعبارة مهينة) وبين النخب، بل إن أمور المجتمع أكثر تعقيداً بكثير: إذ ليس المجتمع هلاماً سمردياً متجانساً تنبثق عنه نظم سياسية وثقافية كما انبثقت حواء من ضلع آدم، وإنما هو بنية مركبة معقدة لا تسمح بهذه الصورة القائمة على تضاد بسيط. كما أن تاريخ العلمانية يشي بأن فئات اجتماعية كثيرة أجمعت على أن وجهة المستقبل تتطلب معرفة الواقع، ولم يكن الكثير منها علمانياً إيديولوجياً:

- لا في فرنسا، حيث انضوت تحت لواء العلمانية فئات كاثوليكية غاليلية، وليبراليون بروستانت، وجماعات وسطية من ذوي الإيمان الاجتماعي الروتيني، بينما اقتضرت العلمانية النضالية على نخب من المثقفين:

- ولا في المكسيك، حيث أخرج الحزب الثوري المؤسساتي (PRI)، الذي حكمها على مدى ٧٠ عاماً، الدين من السياسة، ولكنه لم يعمل على إيداء المشاعر الدينية:

والواقع. أليس نزوع حركات الإسلام السياسي إلى إخراج الإسلام من مكانه الطبيعي في الصدور والمساجد، وأخذه إلى القسر والعنف في محاولة منها لإعادة المجتمع إلى سجيته المزعومة، واللجوء إلى ماء النار والقنابل والإرهاب المعنوي، شأنًا ذا دلالة يشي بغربة هذا الإسلام عن المجتمع؟

أما قبول كثيرين من هذه المقالات الوحشية في الهوية وفي التاريخ، وبأن طبيعة المجتمع إسلامية عصية على التحول، وأن تاريخنا إسلامي في الأساس يدور على أحمد بن حنبل والشافعي وابن بابويه القمي وابن كثير وعمر بن عبد العزيز، من دون عمر بن أبي ربيعة والفارابي ومعاوية والمأمون وابن رشد، وأن على النظام السياسي أن يتطابق مع هذا التاريخ المزعوم والمجتزأ... فذلك أمر لا يشي بالإعراض عن الواقع فحسب، بل يشي أيضاً باستتباع فئات عريضة من المثقفين للإسلام السياسي. فهؤلاء المثقفون يؤثرون مشاهدة برامج «الجزيرة» على التفكير العياني والاعتبار بوقائع تاريخنا وتواريخ غيرنا، ويعتقدون أن الدراما المشهدة - وما تنطوي عليه من استسهال عصابي لقبول الإهانة التي قد يراها البعض في صور كاريكاتورية سخيفة، ومن مشاكسة مستمرة، وعيون حمراء متوهجة، وهندام غريب، وتفجير أعراس وقطارات، وانتحار مرهوق - تدل دلالة تامة على الواقع القار بدلاً من دلالتها على ما تتلفظ به أزمه هذا الواقع. وهم إذ يدعون للمنطق النسبي للإسلام السياسي، ولوحشية هذا المنطق، فإنهم يرتبون عليه نتائج ليس أقلها أهمية استعصاء العلمانية على مجتمعاتنا التي أشرنا إشارات سريعة إلى واقع تعلمنها. ولا أود تخيل ما سيحصل إن كان للمسيحيين من صغر العقل وضيق الأفق ما يحثهم على التجمهر وإحراق السفارات العربية كلما سمعوا المسلمين يتلون الآية القرآنية القائلة بأن عيسى بن مريم لم يقتل ولم يصلب ﴿بل شبّه لهم﴾.

لدى هؤلاء المثقفين العرب، إذن، نموذج نمطي لمجتمعاتنا، عنوانه: الدين، وأربابه، ومن يدعي التكلم نيابة عنه ونيابة عن الله ونبية العربي. وفحواه: أن الله كائن مكفهر لا يرضى إلا عن

ليست العلمانية مجرد فكرة تحملها النخب، ولا وسيلة وصول للمسيحيين، ولا بلسماً يشفي من الطائفية، بل إلامٌ بواقع التاريخ.

الانصراف عن معاينة الوقائع إلى الهوس بالتوافه. وليس الهدفُ في عرضي لهذه الأمثلة الأخذُ بصورة نمطية لمجتمعنا تراه مفطوراً على التوحُّش والهلوسة، بل بإمكانني أن أعرض أمثلةً مباينةً لذلك بالغِ المباينة، ومنها: الكلامُ المحمودُ لمفتي الجمهورية العربية السورية حول جرائم الشرف، وفتوى شيخ الأزهر بجواز إلزام الدولة الفرنسية المسلمين بخلع الحجاب في المدارس، وانتشارُ الرأي لدى قطاعات من مسلمي أوروبا بوجود الانتقال بصلاة الجماعة من يوم الجمعة إلى يوم الأحد.

سأعرض أمامكم بعضَ الأمثلة على إعادة تشكيل الديانة الإسلامية على صورة عقيدةٍ سياسية واجتماعية، ومصدر للعلم والمعرفة، وقوام للقسر، ومنشأ للقوانين والنظم السياسية. فكأننا، بالحنين إلى ماضٍ متوهَّم، راجعون إلى حالةٍ من السوية ما وُجدت قطً في مجتمعٍ من المجتمعات. وكأنَّ في هذا الحنين تعويضاً عن واقعٍ أسود، عبر الانكفاء على حميميَّة الرحم وبراءة الجنين، ناهيك بصعوبة الخروج من رحم الآباء، كما قال الشيخ جودت سعيد مؤخراً. وكانَّ في النكوص العَمَد، والامتتالية الاجتماعية، والنفاق الاجتماعي، والتدروش المظهري أو الاستعراضى أو الوسواسي، وفي وسْم غير المسلم بالكافر (والعبارة فاحشة خصوصاً عندما تُطلق على الجار أو المواطن العربي المسيحي)، وفي الخروج بالدين من العبادات إلى المعاملات - كأنَّ في كل ذلك اقتداراً أو مشروعاً اقتدارياً تاريخياً.

من الأمثلة التي أودُّ سياقتها التالي: لدينا انتشار - بل وقبول - لعدم مصافحة الرجل للمرأة، وكانَّ في قلة التهذيب علامةً على التقوى، وفي حسن الأدب كفراً. ولدينا فتاوىٌ مصيرية (وحاخامية إسرائيلية) تتعلَّق بعدم جواز التماثيل زينةً في المنازل، وبوجوب قطع أيدي أو قلع عيون دمي الأطفال حتى لا تُعبد. ولدينا قولُ الشيخ القرضاوي بأنَّ التسونامي كان عقوبةً إلهيةً على السياحة الجنسية في جنوب شرق آسيا. ولدينا قولُ الشيخ البوطي إنَّ ضياع فلسطين عقوبةً على ترك «الشريعة». ولدينا في دولة مجاورة هي تركيا مرشَّحٌ لرئاسة الجمهورية يودُّ إدخالَ المحجَّبات إلى القصر الجمهوري في دولة علمانية.

- ولا في بريطانيا، حيث خَضَع المجتمعُ لتحوُّل علماني بالغ الأهمية على الرغم من كون ملوكها رؤساءً كنيسة، وحيث تُصنع العقائدُ الرسمية في البرلمان لا في المجالس الكنسية.

أوليس في ذلك علمنةٌ للدين؟ أو لا تظنون أنَّ غلبة فكرة المؤامرة على الخطاب السياسي العربي والإسلامي إنما هي صيغةٌ مُعلَّمةٌ لفكرة إبليس وما تشي به - في كل المجتمعات في أوقات الأزمات - عن رهابٍ فردي وجماعي؟

لا، ليست العلمانية مجرد فكرة تحملها النخب، وليست وسيلةً وصولاً للمسيحيين، ولا بلسماً يشفي من الطائفية. إنَّها إلامٌ بواقع التاريخ، ولا تقتصر على الملحدِّين، ولا هي أمرٌ نابعٌ من المسيحية وتحوُّلاتها ( بإمكانني الاستشهادُ بنصوص لا حصر لها من رسائل بولس الرسول، فضلاً عن الفكر السياسي المسيحي، للدلالة على عدم جواز فصل الدين عن السياسة، وعلى أنَّ الحاكمية لله وحده لا للبشر). لقد تصالحت المسيحية في أوروبا مع العلمنة (من دون التصالح مع العلمانية بالضرورة) بعدما أجبرها المجتمعُ على الإلام بالواقع، وعلى الدخول معه في مصالحة تكتيكية وخطابية، وبصورةٍ نذكرنا بالإصلاحية الإسلامية التي أضحت اليوم هامشيةً إلى حدٍّ كبير، بعد بذل كثيرٍ من الجهد الفكري في سبيل المداورة على القضايا وتربيع الدوائر وتبيئة حركة المجتمع في النصوص التأسيسية الإسلامية.



علينا أن نتساءل، إذن، عمَّ يبعث قطاعات كبيرةً من مجتمعاتنا ومثقفينا إلى الإمعان في نفي الواقع، والإذعان للاتجاهات النكوصية المُتَّخِذة من العداء للعلمانية عنواناً لخطابها طوعاً أو قهراً أو تقيَّةً أو ممالأةً أو تملُّقاً. علينا أن نتساءل عن بواعث قبول المقالة الذاهبة إلى أنَّ ما نراه في مجتمعاتنا من نكوصٍ وعزوفٍ عن التمدن إنما هو «عودة» إلى فردوسٍ مفقود وإلى جوهرٍ سابقٍ على التاريخ، وكأننا بصدد شيخٍ راجعٍ إلى صباه. سأعرض هنا بعضَ الأمثلة على الاتجاهات النكوصية، وعلى

## جولة أفق في العلمانية وشأن الحضارة

الفصائل الحيوانية المتفارقة خلقياً. والحال أن هذه اللغة التي تفترض أن الجماعات تتفارق حكماً (على الرغم من واقع التاريخ وسنن الاجتماع)، وأن علاقتها بعضها ببعض لا بد أن تتخذ شكل الصراع الدارويني، هي من لوازم نظرية إلى المجتمع والتاريخ اقترنت منذ بدايات القرن التاسع عشر بالحركات السياسية اليمينية والرجعية والشعبوية، في أوروبا أولاً، واستطراداً لدى جماعات الإسلام السياسي وبعض فئات الفكر القومي عندنا، وفي الهند، وفي شرق أوروبا، وفي روسيا وغيرها من الأقطار.

ولكن العلم على هذه النظرية في الفترة اللاحقة لعام ١٩٨٩ كان شأن الحضارة والحضارات وصراعاتها وحوارها، وما يترافق مع هذا أو يضارعه من كلام على الثقافات والشخصيات الحضارية أو الثقافية التي تدعو إلى الاستغراب. فلست أدري ما عناصر الشخصية الحضارية التي تجمعي بالبأبأ شنودة أو أبي عمر البغدادي أو سوزان مبارك، ولست واثقاً بأن ما قد يجمعي بهؤلاء أكبر مما يجمعي بأستاذ جامعي دانمركي أو يوناني، وما قد يجمعي بالكثير منكم.

وليس هذا العلم على نظرية المجتمع والتاريخ هذه مستقلاً عن شروط أنت إلى بروزها، بل في بعض الأماكن إلى غلبتها، اليوم وفي أزمنة وأمكنة كثيرة في القرنين الأخيرين، كما في ألمانيا وإيطاليا بعد الحرب العالمية الأولى على سبيل المثال. وليس هنا المجال لرواية هذا التاريخ المقترن دوماً بصعود الهبات والاتجاهات الثورية أو هبوطها: ١٧٨٩، ١٨٤٨، ١٨٧٠ (الفترة التي تلتها الإصلاحية الإسلامية)، ١٩١٧ - ١٩٢٠ (وهي الفترة التي تلاها إنشاء جمعية الإخوان المسلمين والحزب القومي الهندوسي في الهند والحزب القومي الاجتماعي الألماني والحزب الفاشي الإيطالي). بل سأقتصر على ما جلبته نهاية الحرب الباردة من شكل من العولة الأحادية القطب التي نراها مترافقة مع تشظئ إثني وديني على امتداد العالم: من تعدد ثقافي في أوروبا الغربية وأميركا، إلى استفحال للنزاعات الدينية والإثنية في جنوب آسيا وشرق أوروبا، إلى صعود

مناضلة تمنع الحجاب عن مرافق الدولة، وهو ما لا نظير له في دول عربية متمشيخة لا ترتدي فيها زوجات رؤساء الدول الحجاب؛ وليس في كلامي هذا تجريح بمن يختزن الحجاب مهما كان الباعث إلى ذلك، بل حرص على التمايز بين الشأن الشخصي والمجال العام. ثم إننا نرى في مصر اليوم (حسب معطيات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية) إنفاقاً سنوياً يبلغ عشرة مليارات جنيه (أي ما يزيد عن عائدات قناة السويس) على قراءة الغيب وفك السحر والعلاج من الجان، وحوالي المليون مواطن يعتقدون أنهم ممسوسون، وما يقارب وجود الدجال المحترف لكل ٢٤٠ مواطناً - وهذا في بلد تفوق فيه نسبة البطالة التراكمية ٣٣٪ من قوة العمل، ويبلغ فيه معانو ظهور أعراض اكتئابية ١٩ مليوناً. أما في سورية، فلدينا ٢٢ معهداً عالياً لتدريس علوم الدين، وفي دمشق وحدها ٨٠٠ مدرسة دينية تدور في فلكها عشرات الآلاف من الآسأت والسيدات، إضافة إلى إقامة أكثر من ٢٠٠ محاضرة دينية في المراكز الثقافية التابعة للدولة في العام الماضي، علاوة عن افتتاح حفل تأبين محمد الماغوط في العام الماضي بتلاوة من القرآن (ولا نعلم علاقة هذا الأمر بتظاهرة ثقافية ما كانت جنازة بل تأبين وتكريماً لذكرى).

ما الذي يمكن أن يستفاد من هذه الأمثلة ومن الكثير غيرها؟ لا يستفاد من ذلك على الإطلاق أن العلمنة الضمنية والفعلية، والثقافة العلمانية، عصياناً علينا، غريبتان عن مجتمعاتنا، مجافيتان لطبائعنا التاريخية. بل إن ما يستفاد هو محاولة - صريحة لدى البعض، وضمنية أو مدعنة على مضض لدى البعض الآخر - لنفي تاريخنا الحديث وما جناه، ولإعادة تشكيل مجتمعاتنا على صورة تُطلق عليها عبارة «الحضارة الإسلامية التليدة»، أي الخروج بنا من مسار التاريخ البشري بعامة إلى مسار آخر يحولنا إلى محمية حضارية مشابهة للمحميات الطبيعية للدببة والدلافين والهنود الحمر. ولذلك أسباب وشروط، أهمها اعتماد لغة الطبيعة التي تنحو إلى أن تطفى على لغة التاريخ، واعتبار الجماعات البشرية على غرار

لست راغباً في أن أرى في سورية مسيحيين أو أكراداً أو إسماعيليين أو نصيريين بوصفهم أقلية، بل بوصف كل فردٍ منهم مواطناً عربياً سورياً وعضواً كاملاً في الجماعة الوطنية.

لست راغباً في أن أرى في سورية مسيحيين أو أكراداً أو إسماعيليين أو نصيريين بوصفهم أقلية، بل بوصف كل فردٍ منهم مواطناً عربياً سورياً وعضواً كاملاً في الجماعة الوطنية. وليس من صوان لهذا الوضع إلا علمانية الدولة ووعي علمنة المجتمع. ولعلنا نتذكر أن أرضنا العربية السورية هذه هي أرضُ المسيحية قبل أن تكون أرضاً للإسلام، وهي ما زالت بعد أن كانت منبأً للمسيحية.

أعود إلى شأن الحضارات والثقافات، وأذكر بقولي حول وحدة الوجهة في التاريخ الذي نعيش. والوجهة هذه تحتوي على محركٍ أساسي هو الولايات المتحدة: فقد سبقت الولايات المتحدة مشروعها المسمى ديموقراطياً بتصدير نموذج متعدد الثقافات بنته وتبته المؤسسات العالمية، والهيئات غير الحكومية، والعلوم الاجتماعية في تحولاتها المسماة «ما بعد الحديثة» وما بعد الكولونيالية. «ليس غريباً، والحال كذلك، أن يعلن وزير الخارجية التركي عبد الله غول، الإسلامي المنشأ واليهوي، أنه يرغب في أن تكون العلمانية التركية علمانية على الطريقة الأميركية: ففي ذلك استبقاءً لتعبير العلمانية ونفي للمعاني الاجتماعية والثقافية والتاريخية التي اتخذتها؛ ذلك أن ما يجذبه إلى العلمانية الأميركية النموذج هو النص الدستوري على علمانية الدولة من دون أن يستتبع ذلك علمانية المجتمع. بل إن في هواه هذا إشارة إلى نموذج مجتمعي قائم على التدين تنبثق عنه سلطةٌ سياسية مطابقة (حسب المنطق الشعبوي)، وتترتب فيه الجماعات الدينية وغيرها على صورة تآلف للجماعات ما قبل السياسية تحي الطابع السياسي عن السياسة وتعطيها طابع التمثيل للجماعات المغلقة. وهي بذلك تعطل الدستور بتعطيل مفاعيله الاجتماعية، جاعلةً من الجماعات المختلفة بالدم والولادة، بالدين وبالجهة، قائمةً في استقلال عن الجامعة السياسية، أو أسرة لها.

إن ما يسري على الترتيبات الداخلية السياسية الأميركية يسري استطراداً على نموذج تصور العالم استوعبه الكثيرون منا. وهكذا تجري صياغة العالم على صورة «تعدد حضارات»،

للحركات الإثنية المحلية في جنوب أميركا ووسطها. فالحال أنه ليست لأي من الأدوار المحلية للتاريخ العالمي عصمة محلية فعلية، وما يحصل لدينا من نكوص ليس إلا صورة محلية عن وجهة طاغية على التاريخ العالمي الذي نراه سائراً أمام أعيننا. ثم إن ما هو مشهود لدينا، من تحولٍ عن النظر في الواقع إلى الانكباب الهوسي على الوهم، لا يقتصر علينا معشر العرب، بل إن أجزاءً كبيرةً من المجتمع الأميركي مدفوعةً بهوى محاربة الشر، وتشهد اتجاهًا أوروبياً وعالمياً للرهاب من الإسلام (وهو اتجاهٌ مازال الكثير منا مصراً على إضفاء المصادقية عليه).

في نهاية المطاف، علي الإشارة إلى أن شأن الحضارات، الذي أضحي طاغياً، إنما هو إعلالٌ لتوترات فعلية مناطقها السياسي لدينا هو الشعبوية. ودعوني أذكر بأن الشعبوية ليست انعكاساً مطابقاً لطبائع «الشعب» الذي يعزى إليه التجانس والاستمرار التاريخي، بل هي النزوع إلى إعادة تشكيله على صورة طبائع سرمدية تُعزى إليه، وهي - في وضعنا نحن - الطائفية والعشائرية والتدين. ليست الشعبوية إلا محاولة لاخترال صوت الشعب في فرد أو حزب أو جماعة تعزو إلى نفسها التكلم باسم المُستمر السرمدي، وتعيد تشكيل مادتها الاجتماعية بما يطابق المزاج المعزى إليه وما يُنسب إلى النبي أو الرب. لا شك في واقع التعدد الإثني والثقافي والاجتماعي، ولكن الانتقال من الاعتبار العددي إلى الاعتبار السياسي أمر آخر: ففي هذا الانتقال تفتتت للأمم، واعتبار الجماعات العددية - أي الهويات الجهوية والدينية والإثنية واللغوية - بمثابة الوحدات الأساسية للمجتمع السياسي، الأمر الذي يحول هذه الأخيرة إلى ما يشبه الأحزاب السياسية المصوغة مجازاً على مثال الأمة. ينتج من ذلك نموذجٌ ائتلافيٌ للدولة بوصفها مجمعاً للأعيان (كما في لبنان)، وهذا وضعٌ ينافي الديموقراطية لأن الفرد فيه ليس في المصاف الأول مواطناً بل عضوٌ في جماعة سابقة على السياسة. في فرنسا، على سبيل المثال، بريتونيون وقشتاليون وغيرهم، ولكنهم في اعتبارهم السياسي مواطنون فرنسيون أولاً، لا أعضاء في جماعات أقلوية. وقياساً على ذلك، فإنني

## جولة أفق في العلمانية وشأن الحضارة

يحتفل به ويغذيه، عالمياً، مستنبطاً بذلك فكرة التشطّي الحضاري الكامنة في تضاعيف هذا الفهم الإيديولوجي على ما وصّفته الفكرة التي لا فعل اجتماعياً وسياسياً لها إلا القبول بمقالة انفلاق العالم إلى شطرٍ مركزي متطوّر فاعل تاريخياً، وشطرٍ مفطورٍ على الفوات، غيرٍ مقتدرٍ في خروجه من التاريخ إلا على الإمعان في معاينة سرّته والتغنيّ بها، وعلى اعتبار التقوقع مقاومةً تاريخيةً.



هنا يكمن الرابط بين العلمانية وشأن الحضارة والثقافة: إنه يكمن في مقالة «الصحة» و«الاستعادة»؛ في اعتبار تحولات مجتمعاتنا في القرنين الأخيرين هباءً وعماءً، وفي اعتبار أنّ مجتمعاتنا هويةً تُسبق الفعل التاريخي وتعلو عليه. هذا هو الاعتبار الساري، بعد أن استلب الخطاب الإسلامي الخطاب القومي، أو، على الأقل، تغلغل في مسام كلامه على الهوية، وبعد أن استنكف جلّ المثقفين عن التفكير وأثروا الاستجابة للضغوط والمزاجات اليومية للشارع ولغير الشارع ولوسائل الإعلام والخطاب العالمي عنّا - أمحارباً كان أم محاوراً. بين الحرب والحوار تضيق مساحة الهوية، وتتخذ صوراً كاريكاتوريةً ونمطيةً، وتضيق مساحة الفعل وإحداثياته، وتحتنّا على الهرولة هرباً من التاريخ. ولا هرب من التاريخ إلا بالخروج منه نحو فردوس المحميّة البشرية التي نراقب فيها نواتنا وندور عليها، ويراقبنا فيها الآخرون، فرحين بالترديّ والنكوص فخورين به، متغنيّين بالقول إنه ليس بالإمكان أحسن مما كان، متحوّلين بالهوية الدينية عن الواقع إلى الوهم، ناعين على العلمانية عدم إمامها بأولوية الخيال وبشبق الفوات.

لندن

د. عزيز العظمة

كاتب سوري.

مع فاروق يتمثل في أنّه لا وجود لجامع دستوري أو قانوني في هذا المجال بعد تعطيل الولايات المتحدة للشرعية الدولية. ولما غاب عن المجال العالمي الجامع السياسي الوحيد، فقد أصبح العالم مجالاً للصراع أو الاختلاف. وليست العبارة الأخيرة هذه بالعبارة البريئة سياسياً. وعلى ذلك، فإنّني أرى أنّ الحضارة أو الثقافة بمعناها المتداول اليوم هوى سياسي وتوجّه سياسي قبل أن تكون توصيفاً لواقع قائم. وإنّ التوصيف الحضاري للعالم يحتمل الصراع والحرب كما يحتمل الحوار (وليس غريباً)، احتفاءً المملكة العربية السعودية وماليزيا بالأستاذ هنتنغتون)، ولكنّه قائم على الوهم: فليست حروب أميركا حروباً ضد حضارة، ولا معنىً فعلياً للملايين التي تُصرف على ما يسمى بـ «حوار الحضارات» بعد أن قرّرت أوروبا اتخاذ موقع المحاور وترك العمل الأكثر جدوى للأميركيين. فمن الذي يتحاور في عالم ليست فيه إلا حضارة واحدة؟

لا تتصارع الحضارات ولا تتحاور؛ فليست الحضارات قابلةً للشخصنة، ولا يتحارب إلا الدول والجيوش والحركات الاجتماعية المتعينة. ثم هل من وجود فعلي للحضارة الإسلامية إلا بوصفها ذاكرةً كُتبت، يمكن التغنيّ بها، واستلهاؤها وجدانياً وجمالياً، من دون أن يكون لها ممثلون ومتكلمون بعد أن انسَلت الحياة منها؟

ولما كان الوهم يستجلب الوهم، كان لزاماً اختلاق الحضارات حيث لا وجود لها. ولنا نحن العرب دورٌ غير قليل في هذا المجال: ذلك أننا استنبطنا هذا الخطاب العالمي حول الحضارات والاختلاف في قنوات التلفزيون وفي الخطاب العام وفي كتابات المثقفين وخطب السياسيين، وجيّرناه لصالح البثّ الإيديولوجي الأصولي، عن وعي أو عن غير وعي، عندما قبلنا في خطابنا العام أن نشطّي أنفسنا إلى جماعات وطوائف على صورة تعدد الثقافات الأميركية التي قرّناها بالدين ووسمناها بالديموقراطية، والتي تجد تجربتها المثلى في الهندسة الاجتماعية والسياسية التي نشهدها في العراق. وإننا نجد أنّ الكثيرين ممن لا يقرّ بهذا التشطّي داخلياً إنما يقرّ به، بل قد